قال الله تبارك وتعالى

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (26) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (27)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

انتهينا عند قوله تبارك وتعالى {**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**}البقرة٢٥، فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أعده لأعدائه من الكافرين والمشركين، ذكر سبحانه وتعالى ما أعده لأهل الإيمان.

ثم بعدها ذكر ربنا سبحانه وتعالى قوله {**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**}.

فبعد ما ضرب الله للمنافقين مثلا، فقال {**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**}البقرة١٧، وضرب لهم مثلا آخر فقال {**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**}البقرة١٩ هذه أمثلة ذكرها ربنا سبحانه وتعالى، وضربها في القرآن الكريم.

فقال بعض المشركين: ما بال هذه الأمثلة التي تُضرب في القرآن الكريم، فالله تبارك وتعالى أعلى -ويترفع- عن أن يذكر مثل هذه الأمثلة، فنزلت هذه الآية كما قال أئمة التفسير، المشركون قالوا: إن هذه الأمثلة يتنزه عنها الله سبحانه وتعالى، فأنزل الله جل وعلا مبينا أن مثل هذه الأمثلة لا يستحيي الله تبارك وتعالى من ضرب شيء منها، سواء قلّ أو كثر، ولهذا ذكر الله جل وعلا في كتابه كثيرا من الأمثلة، فضرب مثلا بالعنكبوت، وضرب مثلا بالذباب، فحين أنزلت هذه قال هؤلاء: ما أراد الله من ذكر هذا؟ كأنهم يطعنون.

فرد الله تعالى {**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**} وقد ضرب مثلا بالعنكبوت {**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**}العنكبوت٤١، وأيضا ضرب مثلا بالذباب {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**}الحج٧٣، فضرب مثلا بهذا، ومثلا بهذا، وهذه الأمثلة فيها معان كثيرة، فقال المشركون: ما أراد لله بهذا، فأنزل الله تعالى -كما قال بعض أهل العلم- قوله {**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**}، {**بَعُوضَةً**} بدل {**مَا**} في السياق.

وقوله {**فَمَا فَوْقَهَا**} قيل: فما دونها، أي أصغر منها، في الحقارة، وقيل: فما فوقها أي أكثر وأكبر منها، فكلا المعنيين ذكرهما بعض أهل العلم، {**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**} أي ما أكبر منها، وأيضا يلحق ويدخل في ذلك ما كان دونها، وما كان أصغر منها، وأيضا يلحق بذلك ماكان دونها وأصغر منها.

وجاء في الحديث على أن المراد قد يكون **(ما فوقها)** بمعنى **(ما دونها)** وقد يكون **(ما أكبر منها)**، فقوله صلى الله عليه وسلم **(لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)**[1]، فهذا استدل به بعض العلماء على أن المراد من {**فَمَا فَوْقَهَا**} أي: ما دونها، وقوله صلى الله عليه

[1] [صحيح الترمذي٢٣٢٠: صحيح]

وسلم **(ما من مسلمٍ يشاكُ شوكةً فما فوقَها ، إلا كُتبتْ له بها درجةٌ ، ومُحيَتْ عنه بها خطيئةٌ)**[1]، فقوله هنا {**فَمَا فَوْقَهَا**} المراد به أكثر وأكبر منها، وهذا القول أقوى.

وهذه الأمثلة التي ضربها الله جل وعلا في القرآن الكريم، فيها فوائد وفيها منافع كثيرة، لهذا قال بعض السلف -والأثر رواه ابن أبي حاتم في كتاب التفسير- **(إني إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي)** قال **(لأن الله جل وعلا يقول وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)**[2]، فالمثل المضروب في القرآن، يعقله ويفهمه من كان من أهل العلم، فإذا ضُرب المثل وسيق لك المثل الذي جاء في القرآن الكريم واستمعت له ولم تفهمه، فهذا فيه إشارة إلى نقص الفهم ونقص العلم، ولهذا جاء الإكثار من الأمثلة في القرآن الكريم، وأيضا في سنة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وألف العلماء في ذلك، ومنه كتاب "**الأمثال في القرآن الكريم**"[3] الذي جُمعت فيه الأمثلة المذكورة في القرآن، وما تدلّ عليه من المعاني.

والواجب على المؤمن في حق هذه الأمثلة أن يؤمن بها، سواء كان ما صغر منها أو ما كبر، فيؤمن بها ويعلم أنها من عند الله سبحانه وتعالى، وأنها حق، يهدي الله عز وجل بها من يشاء.

قال {**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**} أي يعلمون أن هذا الكلام هو من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه حق، {**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا**} سؤال إنكار واستعلاء، وعدم تيقن وعدم إيمان وتصديق، كمثل قوله عز وجل في الآية الأخرى في سورة المدثر {**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**}المدثر٣١.

فهذه الأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن الكريم يضل بها كثيرا أي من المنافقين، والكافرين، ويهدي بها كثيرا من المؤمنين، فيزداد أهل الضلالة في ضلالهم -عياذا بالله- بتكذيبهم للحق، وأما أهل الإيمان فيزدادون إيمانا مع إيمانهم كما قال جل وعلا {**لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ**}الفتح٤

قال {**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**} هؤلاء الذين يزدادون ضلالا عند سماعهم لهذه الأمثلة إنما هم الكافرون والفاسقون، {**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**} أي هؤلاء الكافرون الذين قد يعرفون هذا المثل،

---

[1] [رواه الشيخان]
[2] ["تفسير ابن كثير"، (٩٧/١)]
[3] [لابن قيم الجوزية -رحمه الله-]

ولكن يكفرون به، و{**الْفَاسِقِينَ**} جمع فاسق وأصل الفسق هو الخروج، ومن ثمّة سميت الفأرة فويسقة، لأنها تخرج من جحرها ومكانها فتحدث خارجه فسادا، وأيضا الذي يخرج عن طاعة الله سبحانه وتعالى يسمى فاسقا، ففسقهم ضلالهم وخروجهم عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

{**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} وهذه صفات أهل الكفر، وهي تخالف صفات المؤمنين، وقد قابل الله عز وجل بين المؤمنين والكافرين في هذه الصفات، فالمؤمنون يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وأما أهل الكفر والنفاق، فإنهم لا يوفون بعهد الله، وإنهم ينقضون الميثاق، وأيضا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، كما قال جل وعلا، ضاربا لهذين المثلين، مقابلا بينهما في سورة الرعد {**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**}الرعد١٩/٢١، هذه صفات المؤمنين، بالمقابل صفات الكافرين قال عز وجل فيهم {**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**}الرعد٢٥، فهذه صفات أهل الكفر، عدم وفائهم بعهد الله، ونقض المواثيق، والإفساد في الأرض عياذا بالله سبحانه وتعالى.

وقوله عز وجل {**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**} فعهد الله ما أخذه عليهم، من وجوب الإيمان بالله عز وجل، وبالنبي صلى الله عليه وسلم، واتباع ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فهذا هو عهد الله العام الذي تدخل فيه جميع هذه المعاني، فعهد الله وصيته إلى خلقه بعبادته وباتباع أمره واجتناب نهيه، وأيضا المراد كذلك {**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**} أي من بعد توثّقه، ومن بعد ثبوته.

{**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**} فسر بعض العلماء المراد هنا صلة الرحم، أي أنهم يقطعون الرحم ولا يصلونها، والمراد هو كل ما أمر الله عز وجل به أن يوصل فإن هؤلاء أي الكافرون والمنافقون يقطعونه ويأمرون بقطعه عياذا بالله تبارك وتعالى.

{**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**} الإفساد في الأرض كما سبق ذكره هو كل معصية، فكل معصية تعتبر من الإفساد في الأرض، وأعظمها الشرك، والكفر بالله سبحانه وتعالى، فهذا من أعظم الإفساد في الأرض، ويأتي بعد ذلك سائر المعاصي.

{**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} أي هؤلاء الذين نقضوا العهد بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، هم الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة، ففاتتهم سعادة الحياة الإيمانية في الدنيا، وفاتهم الثواب والأجر أيضا في الآخرة، وهذه هي حقيقة الخسران عياذا بالله، الخسران على قسمين:

١= خسران أكبر والمراد به الكفر كما قال الله جلّ وعلا هاهنا {**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} وقال {**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**}البقرة١٢١.

٢= والخسران الأصغر وهو ماكان دون الكفر، وهو ما يجتنيه المؤمن على نفسه من تركه للأوامر، أو ارتكابه لبعض النواهي.

فهذه صفة هؤلاء الكافرين، ولمّا كان هذا الوصف مما لا ينبغي أن يكون من العبد، لأن الله جل وعلا هو خالقه، ورازقه، وهو الذي يسّر له هذا الكون، وجعله في تيسيره، وسهّله له، فالأولى أن ينتفع بهذا الكون، مما يعود عليه بالنفع والصلاح، وأن يعبد الله سبحانه وتعالى، إلا أن ثمة جماعة وطائفة من الناس، قد اختاروا الكفر وجعلوا الهدى ثمنا للضلالة عياذا بالله، وانحرفوا عن دين الله عز وجل، وكفروا بالله سبحانه وتعالى، ولهذا جاء هذا التقرير من الله عز وجل قاصدا به هؤلاء كيف يكفرون في حين أن الله عز وجل، قد أغدق عليهم النعم الكثيرة، ويسر لهم كثيرا من المخلوقات.

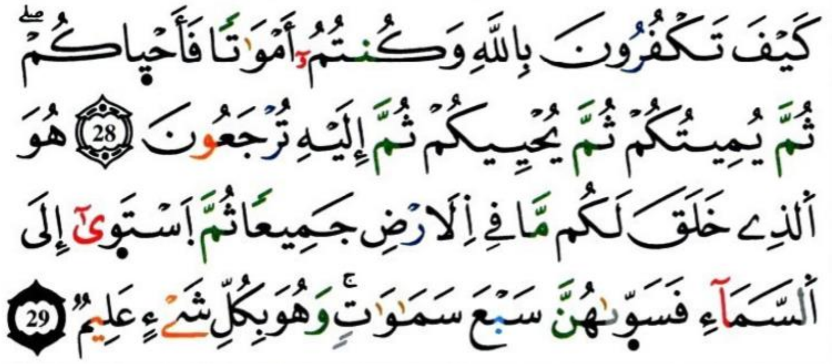

فقال سبحانه وتعالى {**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**} فالله جل وعلا احتج على هؤلاء، مشيرا إلى وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف المالك المدبر، المستحق للعبادة، احتج على هؤلاء، كيف تكفرون وتجحدون ولا تعبدون الله جل وعلا، وفي حين أنكم كنتم عدما، فجعلكم الله جل وعلا في الوجود، ثم تصيرون أمواتا، ثم بعد ذلك ترجعون إلى الحياة، فهذا مما قضاه الله وقدّره، ومما خلقه الله سبحانه وتعالى، فأمركم وتصرفكم وشأنكم بيد الله سبحانه وتعالى، فكيف يصح من الإنسان أن يكفر بالله عز وجل؟ قال جل وعلا

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}الإنسان١/٢.

فالإنسان كان عدما، كان ميتا في صلب أبيه، ثم أحياه الله وخلقه، ثم بعد ذلك يميته، ثم بعد ذلك يحييه مرة أخرى، وهذا يوم البعث للجزاء والحساب، كما قال جل وعلا {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}غافر١١، قال بعض العلماء: الموتى الأولى أي كنتم ترابا قبل أن تُخلقوا، فهذه ميتة ثم خلقكم فأحياكم، فهذه حياة بعد موتة، ثم يميتكم وهذه أيضا ثانية، ثم يحيكم فترجعون، وهذا يوم البعث، فهي الحياة الأخرى، وهذا أصح ما ذكره أهل العلم، ويؤيده قوله تعالى {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}غافر١١، وقوله جل وعلا {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}الجاثية٢٦.

ذكر الله بعد ذلك قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} هذا تأكيد لما سبق، يعني كيف يصح من الإنسان أن يكفر بالله، في حين أن الله جل وعلا هو الذي أحياه بعد أن كان ميتا، وهو الذي يميته، ثم يحييه بعد ذلك للجزاء والحساب، وكيف يكفر الإنسان بربه جل وعلا، في حين أن الله سبحانه وتعالى، قد خلق له الأرض ومهدها له، وفرشها له، وسوى له السماء وجعلها له سقفا محفوظا، ومن كل النعم الشيء الكثير، كما قال جل وعلا {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}الطارق١١/١٠، فترجع الأمطار من السماء، وتنزل على الأرض وتتصدع، ويخرج منها كثير من الأرزاق، فهذا امتنان من الله جل وعلا على عباده في هذه الآية في سورة الطارق، وكذلك في هذه السورة وهذه الآية، وغيرها من الآيات.

فقال جل وعلا {هُوَ الَّذِي خَلَقَ} أي أوجد من عدم، الخلق هو الإيجاد من عدم، والبرء هو الإيجاد على صورة معينة، والتصوير هو تصوير هذا المخلوق في أكمل هيئة، وهذه ثلاثة أسماء من أسماء الله جل وعلا، ومعان متناسبة ومترتبة، الخالق، البارئ، المصور، كما قال جل وعلا {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}الحشر٢٤، وهذه الأسماء وردت على سياق واحد كما في آخر سورة الحشر.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، {ما} اسم موصول أي الذي، فكل ما في الأرض خلقه الله عز وجل لنا، وهذا السياق يستدل به العلماء على حلية كل ما يوجد على وجه الأرض، وكل ما ينبت من الأرض، إلا ما جاء النص على تحريمه، لأن الله عز وجل لمّا امتنّ علينا بهذه الأشياء، وأنه خلقها لنا سبحانه، فخلقه لها لنا لنستفيد منها، ولننتفع بها، فكل ما على الأرض مما هو فوقها، وخرج منها أو في داخلها يجوز الانتفاع به والاستفادة منه، ما لم يأت ما هو صريح في تحريمه، ولهذا لمّا جاء بعض

أهل اليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسألوه عن نوع شراب يشرب البتع والمزر فقال: أيسكر؟ قالوا: لا، فقال صلى الله عليه وسلم **(كل مسكر حرام)**[1]، فكل خمر فهو حرام، فالحاصل أنه سئل عن هذا النوع من الشراب، لم يقل صلى الله عليه وسلم: هو حرام، ولكن الواجب اجتنابه في الشراب ماكان فيه إسكار وإذهاب للعقل، فهذا الذي لا يجوز.

فقوله {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**} هذا امتنان من الله، والامتنان بمعنى ذكر النعمة، وذكر الخير والنفع، الذي أُسدي لك، والله سبحانه وتعالى يمتن على عباده بما يشاء، لأنه خلقهم، وأوجدهم من عدم، ولا حاجة له فيهم، فطاعتهم لا تزيد ملكه، وفجورهم لا ينقص ملكه، فيمتن على عباده بكثير من النعم، وفائدة هذا الامتنان أن نستفيد أنه يصح لنا أن ننتفع بها، وأنها لنا حلال.

أما الامتنان من المخلوق على المخلوق فلا يجوز، ولهذا قال جل وعلا {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى**}البقرة٢٦٤، وستأتينا في هذه السورة، وفي حديثه صلى الله عليه وسلم في الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ذكر منهم المان الذي يمن بصدقته، يعني ينفع غيره، ويوصل إليه نفعا، ثم يمتن فيذكر هذه النعمة وهذا الخير الذي أسداه لغيره، فهذا من البشر فيما بينهم لا يجوز غير مشروع، أما الله تبارك وتعالى فيمتن على عباده بكثير من أنواع النعم.

{**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} فيها معنى قصد إلى السماء، فالاستواء هنا قد ضمّن معنى القصد، والإقبال لأنه عدّي بلفظ **(إلى)** ولفظة الاستواء في اللغة تدل على هذه المعاني الأربعة: العلو، والارتفاع، والاستقرار، والقصد، بحسب ما تُعدّى به، فهنا قال {**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} أي قصدَ إلى السماء، أما تعدّيه بحرف الجر **(على)** {**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**}طه٥، {**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**}الأعراف٥٤، فهنا الاستواء عُدي بحرف الجرّ **(على)** تدل على معنى العلو، والارتفاع، وبه فسره جمهور أهل السنة وجمهور السلف.

{**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} السماء هنا جنس السماء أي كل ما علا وارتفع، اسم جنس، ويدخل في ذلك السماوات السبع.

[1] [نحوه في الصحيحين]

{**فَسَوَّاهُنَّ**} أي خلقهن، سماء بعد سماء، {**سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} أي أن علمه قد أحاط بكل شيء، فلا يتعجب الإنسان مادام هذه الأراضين التي خلقها جل وعلا والسماوات السبع، تحت علمه تعالى ناسب أن يأتي بهذا الاسم في هذا السياق {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ**} لا يزال الإنسان إلى الآن يخترع ويكتشف فيها أشياء من أغرب الغرائب، ومن أعجب العجاب، كما أنه لا يزال الإنسان إلى الآن يكتشف أشياء في السماء، هذا ما هو في السماء الأولى، وإن كان لا يستطيعون أن يتجاوزوها، لأنها سقف محفوظ، فكيف بما هو فوقها من السماوات الأخرى الباقية، فهذا اتساع عظيم، فجاء ما يناسب ذلك في قوله عز وجل {**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} وهذه (**كل**) هي أمّ الباب في باب العموم، في مسائل العموم إذا أردت أن تحكم على شيء على عمومه جئت باسم (**كل**) إذا كان الطلبة كلهم حاضرون تقول: كل الطلبة حاضرون، فكلّ تجمع جميع الأجناس، وتعمّ، فهي الأصل في العموم، فقال عز وجل {**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**}، أي كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما هو تبارك وتعالى به عليم، قد أحاط به علما.

هذه الآية هاهنا جاء تفسيرها وتوضيحها في سورة فصلت حيث وضّح هناك خلق الأرض، وخلق السماء، فقال جلّ وعلا {**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**}فصلت٩/١٢، ففصل ما ذُكر هنا في سورة فصّلت، وما أجمل هنا كان تفصيله على الغالب في سورة فصلت، وإن كان فيه إشارة في سورة الملك، وفي سورة الحِجر، وغيرها من السور، ولكن غاية التفصيل كان في سورة فصّلت، فذكر الله جل وعلا أنه خلق الأرض في يومين، وأنه جعل فيها الرواسي، جمع راسية وهي الجبال الشامخة، التي أرساها جل وعلا في الأرض وثبتها حتى لا تضطرب، {**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**}النحل١٥، ألقاها إلقاء، فثبّتها في الأرض، الرواسي التي رست في الأرض، والرسوّ فيه أكثر من الوجود إنما هو الثبات {**أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**} أي حتى لا تضطرب الأرض، فتتزن في جميع جهاتها، بما فيها مما هو منخفض أو عالٍ، من البر أو البحر، فهذا جميعه يحتاج إلى اتّزان، فاتزانه وثباته وحتى لا يضطرب كان بأن ألقى جل وعلا في هذه الأرض هذه الرّواسي، وهي الجبال.

{**وَبَارَكَ فِيهَا**} أي جعل فيها بركة، ويخرج لنا من الأرض كثيرا من البركات {**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**} تقدير الأقدار كان في أربعة أيام، {**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} أي قصد إليها، {**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**} في كل سماء أوحى جلّ وعلا الأمر الذي يتعلق بهذه السماء، ما فيها وما يُذكر ويُقدّر فيها من تقديره سبحانه وتعالى.

إذن خلق الأرض في يومين، وتقدير الأمر في أربعة أيام، تصير ستة، وخلق السماء في يومين تصير ثمانية، لكن الخلق كان في ستة أيام!، الله جل وعلا ذكر في كثير من الآيات {**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**}الأعراف٥٤، فإذا فصّلت كان كلّ شيء تفصيله ثلاثة أيام، ولكن خلق الأرض في يومين، وتقدير الأقوات في أربعة أيام، يومين في ضمنها فيهما خلق الأرض، وخلق السماء والإيحاء في كل سماء في يومين، فمجموعها ستة أيام، لكن إذا جئت أن تفصّل تصل إلى ذلك، لكن هي في جملتها ستة أيام.

{**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} إذن خلق الأرض كان قبل السماء، ولكن يقول جلّ وعلا في آية أخرى في سورة النازعات {**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**}النازعات٢٧/٣٠، **فكيف يكون الجواب؟** {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**} ثم قصد إليها، وفي الآية الأخرى {**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**} ثم قال {**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ**} أي بعد أن سوى السماء، وبنى سقفها، وأخرج ضحاها، وأغطش ليلها .. الخ بعد ذلك دحا الأرض، فما هو الجواب في الجمع بين الآيتين؟

قال بعض العلماء: {**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**} من باب التقديم والتأخير في الإخبار، أخبر جل وعلا بما فعله وخلقه في حق السماء، وأخبر بما فعله وخلقه في حق الأرض، فالتقديم والتأخير من باب الإخبار فقط، أما حقيقة الخلق فالأرض خلقت قبل السماء، فهذا جواب من أجوبة أهل العلم.

الجواب الآخر وهو أقوى فيما يظهر، أن خلق الأرض كان قبل السماء، ثم خُلقت السماء، ثم بعد ذلك دحيت الأرض، {**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**} دحي الأرض أي إخراج ما فيها من النبات، وإيجاد ما فيها من الكنوز، والنعم الكثيرة، فهذا جواب ثانٍ لأهل العلم، وهو أقوى وبه أجاب غير واحد من أهل التفسير.

فهذه آية أخرى أيضا يذكرها الله جل وعلا على وجوده وقدرته وقوته وجبروته، وأنه الخالق المستحق للعبادة سبحانه وتعالى لما ذكره لنا هاهنا، وما عدده لنا مما فعله من خلق وتسوية، وتيسير وتسخير لهذه الأرض وما فيها، وما بداخلها لنا، وما خلقه سبحانه وتعالى مما نستفيده منه بتقديره تعالى.

قال الله تبارك وتعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
(30) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (31) قَالُواْ
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
(32) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

بعد ذلك انتقل عز وجل مبينا منته الأخرى على بني آدم بذكر فضل أبيهم فقال جل وعلا {**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**} وأنت ترى أن الآيات بينها تناسب واضح، فهنا ذكر امتنان الله جل وعلا على عباده بما فعله في حقهم، من خلق وتيسير للأرض والسماء، والمنة الأخرى ماكان في حق أبيهم كيف خلقه الله جل وعلا، وامتن عليه بأن سجدت له الملائكة، مما يدل على فضله وكرمه عليه الصلاة والسلام -أي آدم-.

{**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**} فهذا امتنان على بني آدم بتنبيههم بذكر أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام في الملأ الأعلى، فالله جلّ وعلا ذكر آدم في الملأ الأعلى أي بين الملائكة.

{**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**} أي واذكر يا محمد ذكر الله لآدم في الملأ الأعلى وهم الملائكة، حيث أشار وذكر لهم أنه سيخلق آدم، وفي ضمن هذا الإشارة إلى أن يقصّ النبي صلى الله عليه وسلم هذه القصة على قومه.

{**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**} أي قوم يخلفون قوما، وقوم يخلفون قوما، وحاكم يخلف حاكما، وجيل يخلف جيلا، كقوله جل وعلا {**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ**}الأنعام١٦٥، وقوله جل وعلا {**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**}النمل٦٢، وقوله جل وعلا {**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ**}الأعراف١٦٩، هذا المراد من قوله {**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**}، من قولهم يخلف قوم قوما، أي هذا يخلف هذا.

والمراد هنا بالخليفة جنس الإنسان، جنس الآدمي، وليس المراد به آدم عينا عليه الصلاة والسلام، هذا النبي فضّله الله جل وعلا، والملائكة لما قالت {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**} لم تقصد بهذا الوصف آدم عليه الصلاة والسلام، ولهذا فالمراد من {**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**} الإشارة إلى جنس الآدمي، ولم يرد من وراء ذلك آدم بعينه عليه الصلاة والسلام، وإنما أراد من ذلك الجنس.

فقالت الملائكة {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**} من أين لها أن تقول كذلك؟ الملائكة كيف عرفت؟ الله جل وعلا قال إنه سيخلق في الأرض خليفة، يجعله في الأرض، قالت الملائكة: كيف تخلق هذا الخليفة وهم سيفسدون ويسفكون الدماء، ويقتلون ويفعلون، ويفعلون، فالجواب على ذلك قالوا: إما أن الله جل وعلا قد أخبرهم بذلك، أي أن من ضمن هذا القضاء أن الله جل وعلا أخبرهم، أن هؤلاء الذين سيخلقهم جل وعلا، منهم أناس يفعلون كذا وكذا، من المظالم والقتل والاعتداء، ونحو ذلك.

أو أن تكون الملائكة فهمت هذا من الطبيعة البشرية التي سيخلق منها هذا البشر، لأن الله جل وعلا قال {**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**}ص٧١، فالخلق من طين، وذكر أيضا أنه خلقه من تراب، وذكر أيضا أنه خلقه من صلصال، وحمأ مسنون، لهذا آدم عليه الصلاة والسلام جُمع فيه من أنواع التربة، ولهذا جاءت ذريته مختلفة الأنواع، فمنهم الأسود والأبيض والأصفر، والأحمر والأزرق، القاتم .. ونحوه، لاختلاف جنس الأرض التي خلق منها آدم، ولهذا يختلف الناس في طباعهم وطبائعهم، يختلفون باختلاف جنس الأرض التي أصابهم منها ذلك العرق.

وقال بعض أهل العلم إنه قبل خلق آدم وُجدت كائنات في الأرض وأفسدت بالقتل والاعتداء والظلم ونحو ذلك، فلما قال جل وعلا {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} الملائكة لها علم بما سبق مما كان في الأرض، فقالوا: هذا الخليفة سيفعل نفس الفعل، وهذا ذكروا فيه كثيرا من الآثار، وهي من الإسرائيليات لا يثبت منها شيء، والأقرب أن تكون الملائكة فهمت هذا بناء على الطبيعة البشرية وما ذكره عز وجل مما سيخلق منه هذا الجنس البشري، أو بإخبار الله سبحانه وتعالى لهم بذلك.

{أَتَجْعَلُ فِيهَا} هذا سؤال استعلام، أرادت أن تتعلم، أرادت الملائكة أن تكتشف، لا أن تعترض على الله سبحانه وتعالى، فأرادوا أن يعرفوا ما الحكمة؟ الخلق موجودون، الملائكة موجودة تسبح، تقدس، تحمد، تكبر، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، تطيع أمره سبحانه وتعالى، تسبح بحمده، تسارع في طاعته، فما الحكمة من المجيء بخلق آخر عملهم الفساد والإفساد وإسفاك الدماء؟ فما هي المصلحة الراجحة في هذا الخلق، مع أن هذا الصنف فيه من المفاسد ما فيه، والله جل وعلا قد أقرهم على ما ذكر.

قالت {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} لم يقل جل وعلا: لا يسفكون الدماء، أو لا يفسدون، وإنما ذكر غير هذا، قالت {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} التسبيح معروف، والتقديس التطهير، والتعظيم، وقيل هو الصلاة، فكل ما هو من شأن الطاعة تفعله الملائكة.

فقال جل وعلا {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أي من الأمور التي أعلمها مالا تعلمون، ففي هذا الخلق حكمة عظيمة أرادها الله سبحانه وتعالى من خلقه لهذا الخلق، فالله عز وجل يعلم وإن كانوا هم لا يعلمون ما هو المقصود من هذا الخلق، الذي سيجعله الله سبحانه وتعالى في الأرض.

وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أي أعلم مالا تعلمون ومن ذلك وجود إبليس فيما بينهم، وهو في أصله فيه الكبر والاستكبار، والعناد، والإباء، والإعراض، والتكذيب، عياذا بالله تعالى، فلما قالوا {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}، قال {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ومن ذلك أنه جل وعلا يعلم فيما بينهم إبليس وفيه من الصفات ما هو أعظم مما ذكَرَ للملائكة في قولها {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} فهذا مما يدل بقوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ويدخل في ذلك أيضا ما يخلقه تبارك وتعالى من الأنبياء والرسل والصالحين والعلماء، وما يكون من هؤلاء من العمل الصالح.

واستفيد من هذه الآية وجوب تنصيب حاكم خليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع التنازع بينهم، وينتصر للمظلوم، فهذا مما يجب، وهو أن يكون في المسلمين حاكم يفصل بينهم التنازعات والمظالم ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة، فهذا مما يجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فهذا مما اتفق عليه أهل العلم، وهذا الحاكم وهذه الإمامة أو الخلافة، أو السلطة، أو الإمارة، أو الرئاسة ونحو هذا بحسب ما تسمى في الأزمنة، قد تُنال بالإجماع، أو تُنال بالشورة، أو تنال بالتعيين والوصية، وقد تُنال بالقوة.

وقيل قد تُنال بالنص، لأن بعض العلماء يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم نصّ على أن أبا بكر هو الخليفة، وهو محلّ خلاف بين أهل العلم، وبعض العلماء يستدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا مرض قدّم أبا بكر ليصلي بالناس، ولمّا جاءت المرأة تسأل النبي صلى الله عليه وسلم فأجابها، فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك، قال **(إن لم تَجِديني فأتي أبا بكرٍ)**[1]، بهذا بعض العلماء يقول: تكون الإمامة بالنص.

وقيل بالإيماء كما جاء في كثير من الأحاديث ما يدل ويشير إلى أن أبا بكر هو خليفة المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكون بالتعيين، أي الحاكم يعين آخرَ في مكانه كما عين أبوبكر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عن الجميع، وإما بالشورى كما جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه الأمر بينه شورى بين ستة من الصحابة رضي الله تعالى عن الجميع، وإما باجتماع أهل الحل والعقد، على مبايعة الإمام، وهذا مما يجب أن يكون في دول الإسلام، يجب أن يكون فيها أهل الحل والعقد، أولو النهى والأحلام، العلماء والخبراء والذين لهم البصيرة، والبصيرون بأمور السياسة وتسيير شؤون الدولة، وشؤون الناس، فهؤلاء هم أهل الحل والعقد، فهؤلاء إذا أجمعوا وعينوا من يكون حاكما على المسلمين، فسائر المسلمين يلزمهم المتابعة والمبايعة.

وإذا تولى الحكم رجلٌ قهرا بالقوة، واستتب الأمر له، فإن ذلك تلزم طاعته، وعلى حاكم المسلمين لابد أن تكون فيه شروط كما ذكر أهل العلم، واتفقوا على أن مما يجب أن يكون فيه: أن يكون ذكرا، حرّا، بالغا، عاقلا، مسلما، وذكروا من الشروط أن يكون مجتهدا أي صاحب علم، وأن يكون بصيرا، وسليم الأعضاء، خبيرا بالحروب، وأن يكون قرشيا وهذا محلّ خلاف، وجمهور أهل السنة على هذه الشروط العشر، وقد فصلها أهل العلم في كتبهم، ومنهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في الأضواء، أشار إليها شرطا شرطا، وبينها.

---

[1] [رواه الشيخان]

ثم يتم الله جل علا في ذكر منته وتشريفه لآدم عليه الصلاة والسلام فقال {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}.

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} هذا مقام في تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام، وتفضيل لآدم عليه الصلاة والسلام على الملائكة، حيث خصه الله عز وجل بأن علّمه الكثير من الأشياء، في حين أن الملائكة لا تعلمها، بدليل أنه لما عرضها عليهم لم يعرفوها، فهذا مقام تشريف وتكريم لآدم عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة أيضا إلى الحكمة من خلق الله تبارك وتعالى لآدم ولهذا الجنس البشري، الملائكة قالت {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} قال {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ومن ذلك هذا التكريم، وهذا التشريف لآدم عليه الصلاة والسلام، فناسب ذكر هذا بعد قوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} فاكتسب البيان حقيقة قوله تعالى {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} فبين لهم شرف آدم عليه الصلاة والسلام، بما فضله الله تعالى به من العلم.

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} أي أشار إليه لكل الأسماء، فسمى له الإنسان، والولد، والدواب، وأنواعا كالحمار والجمل والفرس، وأنواع الأواني، وأنواع الجمادات، السماء، الأرض، السهل، والبحر، والقصعة، والملعقة ... وغيرها، فسمى له كل شيء تبارك وتعالى من الأشياء ومما يتعلق بالدواب والحيوانات وغيرها.

وهذا مما يُستدل به على أن اللغة توقيفية، بمعنى أن الله جل وعلا هو الذي علمنا هذه اللغة، فأصل اللغة توقيفي، أول مخلوق خلقه الله تعالى من البشر آدم عليه الصلاة والسلام، وأنزله إلى الأرض، وعلمه جل وعلا إيحاء فصار آدم يعلم هذه الأشياء، ويعلم أسماءها، من علمه هذه الأسماء ووهبه نعمة النطق وعلمه تسمية هذه الأشياء أرض، ونبت، وشجر، وثمر، وحمار، وفرس، وبغل وخيل، وقصعة، وقدر، وإناء وكذا، وكذا ...؟ علمه الله تبارك وتعالى، فأصل اللغة بوضع الله جل وعلا، ثم تفريع ذلك اصطلاحي، فتسمية أشياء أخرى كثيرة، زيادة على أصل اللغة، هذا مما اصطلح عليه الناس، فأصل اللغة التوقيف من الله سبحانه وتعالى.

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} أي عرض هذه المخلوقات، أو عرض هذه الأشياء، أو عرض أصحاب الأسماء على الملائكة، هذا ما ذكره أهل العلم في هذا المعنى {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ}.

والأصوب هو عرض هذه الأشياء على الملائكة، هل تعرف أسماءها أو لا تعرف، وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري ذكر أن الله جل وعلا علم آدم كل الأسماء، وهذا في حديث الشفاعة، أن الناس يأتون آدم عليه السلام فيقولون **(أنت أبونا خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)**[1]، أي عرض الأشياء، وهذه التي خلقها تبارك وتعالى، والأقرب أنه عرض هذه الأشياء على الملائكة {**فَقَالَ أَنْبِئُونِي**} أي أخبروني {**بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} أي إن كنتم صادقين أنني لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هذه الأشياء، لأنهم قالوا {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويسفكُ الدِّمَاءَ**}، فقال {**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} أي في قولكم هذا الذي ذكرتموه، من أن الخليفة الذي سأجعله في الأرض إنما فعله فقط المعصية وسفك الدماء، والإفساد ونحو ذلك.

{**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**} سبحت الملائكة ربها جلّ وعلا وقدّسته، ونزّهته جل وعلا عن النقص، وعن عدم إحاطته بالعلم، فهو سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علما، ولا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه وتعالى.

{**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**} وذكر هذين الاسمين في هذا الموضع فيه مناسبة، لمّا قالت الملائكة {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويسفكُ الدِّمَاءَ**} قال جل وعلا {**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**} ثم علم آدم الأسماء كلها وعرضها على الملائكة فلم تعرف الأسماء، فقال {**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} فالمسألة تدور على العلم، قالوا {**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**} فالعلم الذي عندنا إنما هو ما علمتنا أنت، فأنت هو العليم، وما عندنا من العلم لم نأت به من عند غيرك، وإنما هو حظنا من العلم الذي علمتنا يا ربنا، وأنت العليم.

وأنت أيضا الحكيم، قالوا {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**} ثم قال {**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**} فلك الحكمة التامة الكاملة في كل ما خلقت، وكل ما أوجدت في هذه الدنيا، فهذا اعتراف وتقديس وتبجيل من الملائكة لربها، والمجيء به هاهنا لهذه المناسبة {**الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**}، في بعض المواضع {**الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**}التحريم٣، في بعض المواضع {**عَلِيمٌ حَلِيمٌ**}النساء١٢، وهنا قال {**الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**} فإذن هذه هي مناسبة ذلك.

[1] [صحيح البخاري٤٤٧٦]

قال بعد ذلك {**قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**} فأنبأهم آدم عليه الصلاة والسلام بكل الأسماء، ما يتعلق بالدواب والطير، وما يتعلق بأمور الأرض، والجمادات وغير ذلك، ذكرهم آدم عليه الصلاة والسلام.

{**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} فكل ما أبديتموه، وكل ما تكتمونه الله تبارك وتعالى يعلمه، فهو لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كما قال جل وعلا {**وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**}، وقال جلّ وعلا {**أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**}النمل٢٥، وقال هنا {**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**}.

{**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**} أي ما أبديتم من قولكم {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**}، هذا مما قالوه، ومما أبدوه، فإن الله تبارك وتعالى يعلمه، ويعلم أيضا ما يكتمون، وذكروا في قوله {**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} أي أنهم قالوا: لم يُخلق خلق أعظم منا، ولا أعلم منا، ولا أفضل منا، ذكر هذا غير واحد من المفسرين، وذكر بعض أهل العلم، في قوله تعالى {**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} أي ما هو مكتوم ومنطوي عليه إبليس من مخالفته لأمر الله سبحانه وتعالى، ومن تكبره عن طاعته.

فقوله {**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**} أي ما أبديتم من قولكم {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**}، {**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**} المقصود به إبليس، وذكر لفظ الجماعة والمراد به واحد هذا مما ورد في القرآن الكريم، ووارد في لغة العرب، قال جل وعلا {**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**}الحجرات٤، قالوا: المراد هو واحد من قبيلة بني تميم، وأيضا قوله جل وعلا {**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**}آل عمران١٧٣، والمراد بالناس هو واحد، وقوله جل وعلا {**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**}النساء٥٤، والمقصود بالناس هنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فهذا معنى قوله {**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**}، ثم ذكر جل وعلا قصة أمره للملائكة بالسجود، ونقف عند هذا الحد إن شاء الله تعالى.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.